الفصل الأول

الحبشة

لايتخذ الناس الجبال أو الهضاب العالية موطناً ، إلا مضطرين . لأنها فى الجملة حزون صعبة المرتقى ، وعرة المنحدر ، وعثة المسالك ، ناقصة فى الثمرات . فلايلجئون إليها — والحال هذه — إلا فراراً من عدو غالب ، أو هرباً من ديار أردأ جواً ، وأخبث نبتاً ، أو أسوأ جواراً .

وهى فى أسوأ حالاتها مثل الصحارى أو البحار منزل قلعة . أو معبر تجتازه القبائل الراحلة ؛ أو الأقوام المهاجرة ، إلى السهول الخصيبة . بيد أنها إذا كانت فى الأقاليم الحارة ، كانت أصلح لسكنى الإنسان من السهول المجاورة . وذلك لجودة هوائها ، وطيب المقام فيها .

وخير مثال لهذا النوع من الهضاب والجبال بلاد الحبشة ، فهى على الرغم من أنها فى قلب المنطقة الحارة ؛ فإن جوّ هضباتها العالية معتدل جميل [1] . يشبه فى جملته صيف بعض جهات أوروبة . ولقد وصف رحالة جوّ أديس أبابا أى الزهرة الجديدة ، عاصمتها قال : « لا إخال أن جوّ أى بلد آخر يعدله . فهو بحق مثال للجودة . . . . تستيقظ كل صباح فتستقبل شمساً صاحية ، حرارتها لا تعدو حد الاحتمال أبداً . وذلك لارتفاعها العظيم ؛ ولرقة هوائها ؛ وبرد النسيم الذى يهب عليها دائباً غير مفتر . . . . . و إذا ما أقبل الليل انخفضت درجة حرارة هوائها ، وأمسى الجو

---

(١) وفى ذلك يقول الأستاذ مراد كامل : « جو أديس أبابا بارد كجو الخريف عندنا يتراوح معدل حرارته بين ١٥° م ، ١٧° م . » . وفيما يلى متوسط درجات الحرارة لشهور السنة المختلفة :
يناير ١٦ر٦ فبراير ١٥ر٢ مارس ١٧ر٨ ابريل ١٦ر٢ مايو ١٧ر٣ يونيه ١٥ر١ يوليه ١٣,٧
أغسطس ١٤ر٩ سبتمبر ١٤ر٤ أكتوبر ١٥ر٦ نوفمبر ١٦ر٣ ديسمبر ١٥ر٦

جميلا . وأمكنك أن تنام نوماً هادئاً مريحاً . وأصبحت ، وأنت لا تصدق أنك على مقربة من خط الاستواء [١] . »

وهضبات الحبشة مغطاة بطبقة من الصخور البركانية الدسمة التى كون فتاتها أرض مصر السوداء الخصيبة ، وهى مضرسة وعرة كثيرة الأخاديد، والأودية العميقة التى تتجمع فيها مياه الأمطار ؛ فتجرى جداول وأنهاراً ؛ يتصل معظمها بروافد النيل الثلاثة ، البحر الأزرق والسوباط والعطبرة . حاملة مياه الفيضان إليها .

وتنتهى الهضبات فى الجنوب ، والجنوب الشرقى إلى نجاد قليلة الزرع . تليها صحارى قاحلة . وتشرف فى الشرق على سهول منخفضة ممحلة . وتنحدر فى الشمال والشمال الغربى إلى سهول قليلة الماء والنبات . ولا غرو فقد وصفها بعض الجغرافيين بأنها جنة فيحاء ، تحيط بها صحار جدباء .

والجو معتدل على سطح هضبات الحبشة ، كما قدمنا ، ولكنه بارد على قمات جبالها وذرواتها [٢] . وحار جداً فى السهول الشرقية وفى أودية الأنهار [٣] .

على أن أهم ظاهرة مناخية فى الحبشة أمطارها الموسمية التى هى مصدر فيضان النيل . وتبدأ فى يونية ، وتنتهى فى أواخر سبتمبر [٤] . وقد تسقط الأمطار فى فبراير

---

(١) وفى ذلك يقول أيضاً أحد الملحقين السياسيين فى المفوضية الملكية المصرية فى الحبشة . «هناك خطأ يسود الأذهان عن حرارة الجو فى أثيوبيا ، إذ يتصوره الكثيرون حاراً لقربها من خط الاستواء والواقع أن ارتفاع أديس أبابا عن مستوى سطح البحر بمقدار ٢٧٠٠ متراً (والحقيقة ٢٤٤٠ متراً) يلطف جوها ويجعله ربيعاً مستمراً » .

(٢) ويسمى الحبشان الأصقاع المرتفعة ديجا ، ودرجة الحرارة فيها منخفضة جداً ، والبرد فيها لذلك شديد . ويجلل الثلج أكثر جهاتها ارتفاعاً .

(٣) ويسمى الحبشان هذه الجهات القلة وتمتاز بحرارتها الشديدة وبهوائها الراكد الرطب الذى تضيق معه الصدور ولا تطمئن له النفوس ، ويتجنب الحبشان الهبوط إليها .

(٤) يطول موسم المطر فى جنوب الحبشة ، ويقصر تدريجاً نحو الشمال ، وهو بوجه عام أغزر فى الجنوب منه فى الشمال . ومن روافد النيل الجنوبية ثانى باكورة الفيضان .

ومارس ، ويسميها الحبشان المطر الصغير[١] . وهى غير ثابتة ولا مؤكدة ، فربما لا تسقط فى بعض السنين مطلقاً . وقد تتأخر عن موعدها المذكور شهراً ، أو يزيد . وقد تتأخر حتى تندمج فى موسم الأمطار الصيفية الموسمية [٢] .

وتهطل الأمطار الموسمية غزيرة ، فتحول الحقول والطرق والمسالك بعد قليل من بدئها بركا ومستنقعات تعرقل السير وتعوق المواصلات ، فتتعطل المحاكم والمدارس ، ودور الحكومة الأخرى لتعذر حضور المتقاضين ، والشهود والموظفون والتلاميذ . ولا جناح فى الحبشة على الموظفين إذا تغيبوا فى يوم غزير المطر [٣] .

وتنحدر الأمطار إلى الجداول والأنهار فتكتظ بها ، ولكن سرعان ما تمسك السماء ماءها ، فتصحو ، ويصفو الجو ، ويجف الهواء فلا يشعر الحبشان بالبلل الذى يشعر به سكان الجهات الاستوائية أو روادها .

ويزعم بعض رواد الحبشة أن الأمطار تنزل فى بعض جهاتها فى ساعات معينة من اليوم ، يكاد تضبط بها الساعات . فتبدأ فى أديس أبابا ، عاصمة الحبشة فى نحو الساعة ٢ر١٥ بعد الظهر فى كل يوم من أيام الصيف (أى طول مدة موسم الأمطار) ويستمر هطلانها ساعة واحدة ، ثم تنقطع حتى الساعة الرابعة مساء ، فتستأنف

---

(١) متوسط عدد الأيام الممطرة فى أثناء موسم المطر الصغير الذى يقدره بعضهم بثلاثة أشهر من مارس إلى مايو نحو ٢٩ يوماً ومتوسط ما يسقط فى الشهر ١٠٠ مليمتراً .

(٢) ويسميها الحبشان الموسم الكبير (يونيه — سبتمبر) وعدد أيامه الممطرة ٩٢ يوماً ومتوسط ما يسقط فى الشهر ٢٥٠ مليمتراً .

(٣) وقد كتب مراسل الاهرام الخاص فى أديس أبابا (بتاريخ ١٨/٣/١٩٤٤) ما يأتى :
« حل موسم الأمطار التى يتزود منها نهر النيل ، على أن هذا الموسم جاء متأخراً (ويقصد على الرغم من أن ...) فإن المطر يهطل بكثرة لم تعهد من قبل ، ويبلغ من غزارة المطر الآن ، أنها عطلت المواصلات الداخلية فى البلاد ، وأن المحاكم قررت إغلاق أبوابها لتعذر حضور المتقاضين من الأماكن البعيدة . . . . . كما أن وزارة المعارف الحبشية جرت على منح التلاميذ أجازة للتغيب عن مدارسهم طول موسم الأمطار . »

سقوطها ، وتستمر معظم الليل [١] . ويزعم بعض من زار الحبشة من المصريين أن موسم الأمطار ينتهى فى أديس أبابا فجأة فى يوم معين ، وهو يوم ٢٧ سبتمبر من كل سنة ، ويزعم سكانها أنهم لا يذكرون أن الأمطار سقطت قط بعد هذا اليوم حتى مبدأ موسم المطر التالى [٢] .

وتكثر العواصف الرعدية فى أثناء موسم الأمطار .

ولقد وصف سائح عاصفة قال :..... « بدت السحب على الأفق الشرقى . وسرعان ما غطت وجه السماء ، سوداء داكنة ؛ فوارت الشمس وراء حجاب كثيف ؛ لم تستطع أشعتها هتكه . ثم رعد الرعد ، وبرق البرق . وبدأ الهواء الذى كان ساكناً منذ دقائق معدودة ، يزفر . ويئن أنيناً محزناً مخيفاً . وخيل إلىّ أن عناصر الطبيعة تعانى آلاماً مبرحة . وأن انفصام عرى العالم أصبح أقرب من حبل الوريد . ولم تلبث الأمطار أن انهمرت انهماراً شديداً . . . . . واستمرت العاصفة ساعة ، قرت بعدها فجأة كأن لم تكن . لولا ما خلفت بعدها من مياه غمرت السهول المجاورة ؛ وأشجار ملقاة على الأرض اجتثتها من أصولها .

ومعظم أرض الحبشة مراع خصيبة تتجلى بأجلى مظهر لها فى أثناء موسم الأمطار [٣]

---

(١) نقلا عن الأستاذ مسيحة عبد السيد المدرس بالمدرسة التوفيقية سابقاً ، والذى كان مبعوثاً للحبشة من قبل وزارة المعارف .

(٢) نقلا عن الأستاذ مسيحة . . . . . على أن المعلومات التى لدينا تثبت أن المطر لا يكاد ينقطع فى أى شهر من شهور السنة فى جميع أنحاء الحبشة ، وإن كان أكثره يسقط فى شهور الصيف (يونيو — سبتمبر) ونسبته نحو ٨٠ ٪

وفيما يلى إحصاء بما يسقط فى أديس أبابا موزعاً على أشهر السنة بالمليمتر :

يناير ١٥ فبراير ٤٨ مارس ٧٠ ابريل ٨٧ مايو ٧٥ يونيه ١٤٦ يوليه ٢٧٩ أغسطس ٣٠٨ سبتمبر ١٩٢ اكتوبر ٢٠ نوفمبر ١٤ ديسمبر ٦ .

(٣) وفى ذلك يقول الأستاذ مسيحة كامل : .... وبمجرد انتهاء موسم الأمطار تكسو البلاد طبقة من الزهور المتنوعة الجميلة ، وخضرة براقة — وإذا ما سرت فى الطريق إلى مدينة جمة (شيما) صحبتك رائحة الياسمين الذى يترعرع الخ ...

وفى الأيام التاليـة له مباشرة إذ تحول الأرض بسـاطاً من السندس الأخضر تتخلله الزهور الملونة ، والورود الحمراء العبقة .

وتتخلل هـذه المراعى أشجار تتقارب كل المقاربة حتى تصـير غابات فى أسفل سفوح الهضبة الغربية ، وفى بطون الأودية وفى بعض الربا والجبال .

ولقد كانت الحبشة فى الماضى القريب أكثر أشجاراً . إذ كانت مساحات واسعة من أرضها مغطاة بغابات كثيفة اجتث الأهلون كثيراً منها . واستعملوها حطباً يوقدونه للدفء ، ولطهى الطعـام . ولقد كان الملوك وجنودهم يحلون بالأماكن المشجرة . ولا يزالون يقطعون شجرها حتى يأتوا عليه ، ثم يتركونها إلى أماكن مشجرة أخرى وهكذا دواليك . ولهذا السبب توارى كثير من غابات الحبشة وقل شجرها .

وتسرح فى المراعى ملايين من البقر الصغير الحجم ذى السنام ؛ ومن الخيل والحمير والبغال والضأن والماعز .

وما يزرع من أرض الحبشة قليل بالنسبة لمساحتها . وأهم مايزرع فيها البن والطِّيف والذرة ، كما يزرع قليل من القمح والشعير والقطن وقصب السكر ، وبعض الفواكه كالتين والزيتون والكروم والبرتقال والخوخ والبرقوق والرمان والموز وبعض الخضر .

وتتحول المراعى فى أواخر فصل الجفاف إلى هشيم يطلق الحبشـان فيه النيران قبل نزول الأمطار مباشرة .

ولقد وصف سائح منظر هذه النيران بين مناظر الحبشة الطبيعية المختلفة قال.....

أشرفت من رأس أحد التلال المطلة على ضفة نهر تـكازا الشمالية فرأيت ضباباً أبيض كالثلج منتشراً فوق النهر الذى ينساب ، متلوياً فى وادٍ سحيق ، تكسو جوانبـه أدغال كثيفة من شجر الأبنوس والمطاط والتمر الهندى ، تسرح الفيلة فى جنباتها . ورأيت النار تلتهم الـكلأ والشجيرات المنتشرة فيه . وتتصاعد منها ألسنة حمر من اللهب يداعبهـا الهواء فتنثنى وتتمايل ذات اليمين وذات الشمال . ويخرج منها دخان

داكن ينتشر فى الفضاء فينشر جواً خانقاً فى الربا المجاورة . ومددت بصرى فنفذ من هذا المنظر إلى منظر رائع أشد الروعة . جميل أشد الجمال . منظر جبال « سِنِينْ » ، وقللها الذاهبة فى الفضاء ، كأنها غرق فى لجة من لجينْ ، صاغتها أشعة القمر الفضية الساجية الباردة .